الاسلام يقاوم نفوذ النصرانية (*)

الاسلام في المستقبل سيكون نظير الدين الاسرائيلي يطبق نفسه على حاجات العصر الحديث ولا يدع النصرانية تغلبه وتسلبه ابناءه

(مقدمة المترجم)

ان نشوء الاسلام في المستقبل سيعيد تاريخ الدين اليهودي الحديث بدرجة مشابهة، فالمبشرون بالانجيل الذين لا يزالون يتوقعون انضمام كل الاديان الى النصرانية لا تحقق احلامهم فيما يتعلق بالاسلام، لان الدين الاسلامي سيظل دينا قويا نشيطا لنظير الدين اليهودي، ويطبق نفسه لنظير الدين اليهودي على حاجات العصر المتغيرة

هذا هو رأي الدكتور (كريستيان سنوك هرغرنج) الهولندي الذي قضى ربع قرن يدرس القضايا الاسلامية وشريعة الاسلام وفلسفته

وما يقال عن هذا الاستاذ: انه اكثر من خيالي ونبي متقرض. فهو اعلم علماء عصره في الاسلام - لانه لا يعرف تاريخ الاسلام وشريعته وفلسفته معرفة دقيقة فقط، ولكنه قضى ربع قرن يدرس الاسلام من وجه علاقته بالمؤسسات الدينية والسياسية الاخرى

وقد ارسلته جامعة ليدن في هولندا على سبيل المبادلة الى الولايات المتحدة للمرة الاولى ليلقي في امهات كلياتها العلمية اربع محاضرات في تاريخ درسه الاسلام، وقد فصل في هذه المحاضرات زياراته لمكة (مدينة الاسلام المقدسة) فانه قضى ثمانية اشهر ضمن تلك المدينة المسورة وكان فيها عضوا من بطانة رجل مسلم، فاتم هناك الفرائض الدينية التي كان يقوم بها يوميا مائتا الف من حجاج مكة، وتعهد الجوامع هناك، وسمع المحاضرات التي لم يكن يسمعها في الزمن الماضي غير المسلمين. وكم من قصة رويت عن نصارى اضلوا الطريق ويهود مغامرين قتلوا في مكة لانهم بأنهم تجرءوا على الدخول الى المدينة الاسلامية المقدسة؟ واذا لم تصدق هذه الاخبار فقد ثبت ان كثيرين من غير المسلمين طردوا من المدينة باهانة عند ما ظهر انهم غير مسلمين

(*) القى الدكتور (كريستيان سنوك هرغرنج) الهولندي في امريكا محاضرة في سبل المسلمين الدينية والاجتماعية وما يتقاضاه من قرائحهم على مدينة الهدى النبوية التي تقام في (نيويورك) ووضعت هذا العنوان لها وهي مقتبسة في مقتضى سيرة الدكتور. فنقلناها عنها مع تصحيح بعض الالفاظ مما فيها من الغير للمسلمين

ثم ان الدكتور هرغرنج ليس يعرف اللغة العربية فقط بل انه قبل ذهابه الى مدينة الاسلام المقدسة قضى عدة سنين يدرس التاريخ الاسلامي ، وكانت معرفته هذه للاسلام وسيلة استطاع بها ان يحافظ على تنكره مدة ثمانية اشهر قضاها في مكة ، وبلغ منه انه خدع الكلاب الشارحة التي تفرق المسلم عن غير المسلم لانها تعرفه بقوة الشم فتهاجمه وتفضح أمره

وقد وضع الدكتور المذكور بعد اقامته في مكة فصلا فيها وفي تاريخها وحياتها العمومية الحاضرة يعتبر الكتابة الوحيدة التامة عن هذه المدينة المحمية

وليس اهتمام هذا الدكتور بالاسلام اهتمام طالب علم فقط ، فقد قضى سبع عشرة سنة في الهند الشرقية الهولندية مستشارا لحكومة هولندا في المسائل المتعلقة بادارة سكان الهند الشرقية الوطنيين ، واستطاع بدرسه الاسلام درسا عميقا واسعا ان يضع لهولندا السياسة التي تجري عليها مستعمراتها الاسلامية التي تحتوي على نحو من خمسة وثلاثين مليونا من اتباع النبي محمد

ومن مضي سبع سنين عاد الدكتور الى هولندا ليكون استاذ اللغتين العربية والسلافية في جامعة (ليدن) فقبل هذه الوظيفة على شرط ان يبقى مستشارا عموميا للحكومة في المسائل الاسلامية

وزيادة على ذلك انه سافر في اكثر البلدان الاسلامية ، وكان في خلال ربع قرن مضى يراقب الحركات الدالة على احداث تغيير ديني وسياسي في العالم الاسلامي كله ، ولذلك كانت صورته التي صور بها حالة الاسلام الحاضرة ، والطريقة التي يجري عليها في تتبع شؤونه في المستقبل ، اصدق من صور الكتاب الذين يعتبرون ان الاسلام لا يزال جريا في شكله الشرقي ، بل انه يرى ان الحواجز بين الشرق والغرب تهدم بالتدريج مهدما يؤدي الى امتزاجهما السريع في خلال سنين تأتي

وقد القى هذا الدكتور محاضرة بالامس في جامعة كولومبيا في الاسلام هذا ما قاله فيها : —

﴿ محاضرة الدكتور هرغرنج في الاسلام ﴾

ان المدينة الاسلامية كانت في خلال الف سنة مضت ترتفع الى الدرجة الحاضرة الراقية ، فمن مضى الف سنة اعتقد المسلمون ان احوالهم الدينية راضية تمام الرضى ، وكان المعتقد الديني عندهم مسألة مقررة ، وكان السواد الاعظم من المسلمين

يقولون بعصمة الدين الاسلامي ويقبلون حقيقته الكشوفة بدون ريب، نظير اجماع النصارى على عصمة الكنيسة الكاثوليكية. وكانت للاسلام شرائع تعلق بالحياة في كل اطوارها من شخصية وعمومية وفردية واجتماعية وعلى الجملة ان الاسلام كله قام على استقلال المسلمين السياسي، فقد كانوا في دائرتهم الخصوصية احرارا مستقلين اعتبروا العالم كله ملكا لهم، فالذي لم يكن لهم كان عليهم ان يفتحوه، وبذلك كان حكم السيف ممكنا اذا لم يكن محتملا، ولكن ثبتت استحالته في الالف سنة التي مضت. ففي خلال القرن الماضي تعرى الاسلام من استقلاله السياسي باعتداء الدول الاوروبية التدريجي عليه، ونتج عن ذلك ان الاسلام اضطر ان يعدل آراءه واعماله، وتأكد للمسلمين انه يجب عليهم ان يحسبوا حسابا لما تفعله الامم الاخرى ويحصل عليه

وقد نجمت عن هذه الحالة مسألتان ـ الاولى منهما هي: هل يستطيع الاسلام الذي يرشد حياة تابعيه وأفكارهم ان يجاري هذا التغير عند ما يفقد استقلاله السياسي الذي قام عليه ؟

ان الذين درسوا القضايا الاسلامية استنتجوا ان القضايا الروحية، متصلة تمام الاتصال بالقضايا المادية في الدين الاسلامي، بحيث ان سقوط الاستقلال السياسي يستلزم سقوط الاسلام نفسه، ولكني لا أوافقهم على هذا القول

اما المسألة الثانية فهي اهم من الاولى وهي: هل اذا كان الاسلام قادرا على احتمال ذلك التغير ـ كما اعتقد انه قادر ـ يقدر ان يطبق نفسه على قضايا الحياة الحديثة بطريقة يستطيع بها تابعوه بان يكونوا في مقدمة الصفوف في ارتقاء العالم ومدنيته ؟

هاتان هما المسألتان مم كل القضايا الاخرى المتفرعة عنهما ما أريد البحث فيه على مسامع الامريكيين رجاء ان اوقف الغربيين على الانقلاب العظيم الجاري في العالم الشرقي ويجاري هذا الانقلاب

فشل محاولة تنصير المسلمين

والامر الجوهري في هذا الشأن هو الوجه المنظور فيه الى قضية مستقبل الاسلام، فاذا نظرتم اليها بعيني المرسل النصراني الديني فلا بد انكم تستنتجون انه لا يرجى شيء كثير من نشوء الاسلام، لان الاسلام قبل صيرورته كفرا يجب عليه ان يتخذ النصرانية اولا. ولكن هذا هو اسوأ رأي يعول عليه، وأنا مسرور بقولي انه ليس رأيا شاملا، فالمسلمون لا يقصدون ان يتنصروا، وقد احتاطوا اعظم احتياط لهذا الامر الذي ادركه كل المبشرين النصارى المتورين في الاراضي الاسلامية، ففي

الهند الشرقية الهولندية ـ حيث قضيت سبع عشرة سنة ملتصقا تمام الالتصاق بالمؤسسات الاسلامية ـ لا يقدر المرسل النصراني الديني ان يربح تابعين لدينه، نعم يوجد كثيرون من المدعوين مسلمين ولا سيما سكان د خلية البلاد الذين لم يتغلغل اليهم دين من الاديان، وقد ابتعدوا خطوة واحدة عن دينهم الوثنية الفطرية، ولم يعد يصعب تنصيرهم. وفي بعض جهات جاوه حيث انتشرت الديانة الهندية سابقا لم يجد المرسلون النصارى صعوبة في تنصير قبائل برمتها

ولكن اكثر دعاة النصارى الدينيين في البلاد الاسلامية المحضة ـ حيث الاسلام تقليد قديم لادين يتدين به ـ يرون صعوبة كبرى في تنصير المسلمين، وقد تحولوا عن التبشير بالمسيح الى التهذيب والاعانة، وما داموا جارين على هذه الطريقة فالمسلمون مستعدون لقبول ما يقدمونه لهم

مثلا ان الذي تقدمه كلية روبرت الامريكية في الاستانة يقبله كل مسلم. وقد كان للكلية المذكورة فضل كبير في نشر المعرفة والطرائق التي يعتبرها المسلمون منتهى التقدم. ولكن الكلية المشار اليها لم تحول مسلما واحدا عن معتقده

وقد حدثت مؤخرا احد زملائي المرسلين الذي قضى عدة سنين في الجزائر وصادفني بتعصب المسلمين في شمالي افريقيا سألته عن العمل التبشيري الذي تقوم به الجمعيات الكاثوليكية الدينية المتعددة فقال: انه عمل ناجح ولكن لا ذكر البتة للدين فيه.

هذا وان هولندا تحكم على خمسة وثلاثين مليونا من المسلمين ولم اعهد تفكر قط في هدايتهم وتنصيرهم. وكل ما ادركناه هو حاجتنا الى تعليم هؤلاء الناس الذين وكلت أمورهم الينا بمقتضيات الحوادث التاريخية. وادركنا ان افضل شيء لتنويرهم هو تطبيق ديننا الخاص ومؤسساتهم الخاصة على حاجات العصر الحاضر

ولا اعتقد ابدا ان الدين الاسلامي يسقط امام النصرانية، لان المسلم يحتاط اشد الاحتياط لمقاومة النفوذ النصراني، فهو يعرف النصرانية التي ليست عنده شيئا جديدا غير مألوف، فقد عرف اصلها وطريقة نشوءها وهو يعتبرها دينا فسد بالتدريج، واخيرا نسخه وحي النبي محمد خاتم الانبياء الموحى اليهم. وبالتالي انه يعتبر النصرانية شيئا مضى، ويرى تدينه بها خطوة الى الوراء. ومهما كان التبشير الذي يقع على الاسلام في ربع القرن الجاري او نصفه فانه لا يكون تغييرا يتناول التدين بالنصرانية، اذ لا تدعو الضرورة في الاسلام الى هذا الاصلاح

إضعاف الاسلام بالتربية والتعليم

ولا يخفى ان كل من عاش في اراضي الاسلام لا ينكر انه حدث في النصف الاخير من القرن الماضي تغيير عظيم ، فقد اشتدت حاجة المسلمين الى كل ما هو ضروري للاشتراك في الحياة الحديثة التي تمت دخول الغزاة الغربيين الى الشرق ، ولم يعد المسلمون المتنورون اليوم يكتفون بالتربية الاسلامية القديمة ، فهم يطلبون لابنائهم حديثين وكيماء حديثة ، واحدث شيء في علم الحياة . وصاروا يطلبون دروساً اجتماعية في مدارسهم ، واللغات الحديثة والفن الحديث ، ولا يبالون من يقدم لهم هذه الاشياء اذا قدمت لهم في غير صبغة دينية

مرّ زمان كان فيه المسلم يعرف ابناءه المسلم بالقاب طريفة مختلفة - كأخلاقه وطريقة معيشته ولباسه واكله ، ولكن كل هذه الميزات اخذت تزول بالتدريج ، بل ان الميزة الوحيدة التي كان بها المسلم يقدر ان يعرف ابناءه في الدين سيزيلها التهذيب والتعليم بعيدة مصروفة من العقيدة الدينية

وقد زالت عادات اسلامية قديمة كثيرة ، واصبح كثير منها آخذاً الآن بالزوال ، فزي اللباس الشائع الذي دخل من الغرب الى الشرق يجعل تأدية الصلوات الخمس الواجبة يومياً امراً مستحيلاً ، فلم يعد المسلم الشرقي يقدر اليوم ان يصلي خمس مرات في اليوم بين شروق الشمس وغروبها (!) وهو مضطر ان يشتغل ثاني ساعات في اليوم . بل انه لا يقدر ان يحافظ على مركزه في الصناعة المنظمة التي يضطر الى مزاولتها بالتدريج ويصوم سحابة النهار في شهر رمضان

وقد كانت هذه الامور قديماً شرائع لا بد من العمل بها . اما الآن فانها تصير اشياء لا يقدر ان يعاوبها غير حجاج مكة والائمة المصورين ، بل حدث تراخٍ في كل شيء فقد ساد الاسلام في وقت من الاوقات ، وتناولت سيادته التجارة ايضاً ، ولكن حفت به المشاكل بالتدريج . نعم ان ميدان الحياة لا يزال عند المسلمين مشكلاً من اشكال المقامرة ، ولكن الربا في استيلاء المال صار ممكناً باعتبار ، فسما من المقارلة الاصلية

درجة تأثير الافكار الاوربية في المتعلمين

تغلغلت الافكار الاوربية في كل جهة من الاراضي الاسلامية ، ولكن لم يجد فيها الشعور الاوربي مركزاً ، ولهذا اجرأ على القول بان المسلمين سيستمرون على دينهم مهما اخذوا من التهذيب والمدنية الغربيين . ففي كل المدارس الاوربية الكبرى نجد كثيرين من الطلبة المسلمين ، وهم من فئة المتنورين الذين بواسطتهم تحدث التغييرات

الاولى في الاسلام . وهؤلاء الشبان من أهل العلم في العالم ، فقد درسوا العلوم الغربية بفروعها نظير خيرة طلبتنا الغربيين ، وهم لا يقومون بكل الفرائض المطلوبة من المسلم الحقيقي ، لانهم مثلنا في طرائق اللباس والمأكل والمعيشة

ولكن مجرى عقلهم لا يزال اسلاميا ، فقد كان بين تلاميذي طلاب مسلمون ، وعندما كنت اتناول مباحثهم التي يكتبونها كنت أرى فيها مظاهر فكر اسلامي في شكل يختلف كل الاختلاف عما يكتبه طلبتي الآخرون ، بل كنت دائما أعرف الطالب المسلم من مباحثه .

ثم إنك ترى موقف المسلمين المتنورين تجاه شريعتهم وعقيدتهم القديمتين نفس موقف المتنورين بين الاسرائيليين في العصر الحاضر ، وكلما عشت بين المسلمين ازددت اعتقادا ان الاسلام سيجري في نشوئه على الطريقة التي سلكها الدين الاسرائيلي في تاريخه الحديث .

نعم ان الضغط الشديد الذي وقع على الدين الاسرائيلي لم يقع على الاسلام . فتفرق الاسرائيليين بين امم الارض اضطرهم الى ان يطبقوا حياتهم على شرائع غير شرائعهم ، وكذلك اضطر المسلمون الى ان يفتحوا الطائفة الكبرى من شرائعهم المسيطرة على حياة الفرد اليومية من جراء اتساع الاراضي التي احتلوها بالتشريع والخلايط المتعددة التي اضطروا الى العمل بوجوبها

الاسلام والبهودية

وبين الاسلام والدين الاسرائيلي تشابه عميق يزداد ظهورا في مخالطة المتنورين الاسرائيليين والمسلمين ، فالتوحيد هو قاعدة الدينين ، وليس الله تجاه خدامه في هذين الدينين الا مشترع يرى كل قسم من حياة الرجل يحتاج الى شريعة . ومن أجل ذلك صار درس الشريعة فيهما عاملا مهما . ولكن الوجه المثالي في الدينين المذكورين أخذ أخطاطا عظيما ، وأخذ يقتصر على القائمين ضمن جدران المدارس ، ولم تبق له علاقة قوية بحاجات الحياة الفعلية

وقد صار تفسير الشريعة في الدين الاسرائيلي منوطا بالخاخامين ، وماعدا بعض مراسيم دينية خارجية نرى أكثر المتنورين الاسرائيليين مكتفين بحفظ العقائد الاولية من دينهم ، أما عامة القوم فانهم يضيفون اليها طائفة من الخرافات القديمة

ونرى الاسلام تاليا لدين الاسرائيلي . خذ القرآن مثلا وانظر الى التغيير الذي حدث في خلال ثلاثة عشر قرنا مشت على تأسيس الاسلام ، فالمسلم العربي المولد لا يقدر

ان يفهم آيات القرآن الا بعد درس طويل

ولا يخفى أن أكثر المسلمين يعتبرون القرآن كتابا مقفلا، فقد كان في وقت من الأوقات قوة اصلاحية في العالم، وكان يقرأه كل مؤمن ورع ، أما اليوم فان الائمة والعلمانيين يقرأونه بتجويد دون أن يتدبروا معناه ، حتى أن الكلمات التي يجودونها حجة عليهم في أشياء يصنعونها كل يوم حتى خلال التجويد

وسيقع أيضا تغيير على الشرائع والمؤسسات الاسلامية فيحل درسها بالتدريج محل ممارستها ، بالرغم من انتقليد المقدس الذي يتعلق بان المعرفة بدون عمل لا فائدة منها . وزد على ذلك ان الناشئة الاسلامية الناهضة لا تريد أن تكد ذهنها في درس الشريعة الاسلامية ، كما هي تتعب ذهنها بتجويد الآيات القرآنية ، فان هذا الأمر سيقتصر على فئة خاصة من المسلمين، كما هو الحال عند الاسرائيليين في الوقت الحاضر

ولكن ترك العادات القديمة والاعتراف بعدم اتفاق الشريعة القديمة مع حاجات الحياة الحديثة لم يفهم منهما ان الاسرائيليين تركوا دينهم ، وكذلك لا يفهم منهما ان الاسلام سينحط . نعم ان بين المسلمين المتنورين اليوم متعصبا قليلا، ولكن في صدورهم ميلا قويا الى التمسك بدين آبائهم وتطبيقه على الحاجات الحديثة . بل ان المسلمين المتنورين اليوم لم يعودوا يذكرون الجهاد، ولكنهم يلفتون الأنظار الى احياء التساهل واتساع المعرفة التي تتفاعل في كل جهة من جهات العالم الاسلامي

وهاهنا أمر آخر هو أن المسلم المتنور يشعر نظير الاسرائيلي المتنور بالرابطة الروحية التي تربطه الى اخوته في الدين وهو لا يريد أن يقطع هذه الرابطة . نعم ان السواد الاعظم من المسلمين ـ ولاسيما حيث النفوذ الاوربي لا يزال خفيفا عليهم الآن حيث كانوا من مضي خمسمائة سنة . وكذلك توجد فئة بين الاسرائيليين لا تزال تمارس شريعة لم تصدم بالحياة الحديثة بعد وقد كان تطبيق التقليد المقدس على حاجات المحيط المتغير ظاهراً باجلى مظاهره في الدين الاسرائيلي . ولكن التشابه في نشوء الدينين الاسرائيلي والاسلامي يحمل لواحد على أن يتوقع للاسلام نفس ما وقع في الدين الاسرائيلي

ولا يمكن أن يقع انحطاط تدريجي في الاسلام، لانه توجد بواعث خارجية تمنعه ، فالاسلام قوي ولم يضعف لاسيما في القرن الماضي، وقلت فيه الانشقاقات الداخلية . وزد على ذلك أن الاسلام يربح أكثر من النصرانية تابعين له من الوثنيين . فالذي يصير مسلما لا يطلب منه شيء كثير، اذ لا يوجد تقديس ولا طقس ديني ولا تعليم

طويل، فكل ما يطلب منه ان يعترف بالله أنه كلي القوة، ومن ثم يتدرج الى تعلم الفرائض الاسلامية الدينية، وعندما يصير مسلما يتغير مركزه الاجتماعي، ولكن اذا تنصر فانه يبقى دون غيره، ويظل المرسل الديني غريبا معلما منتحيا عنه

الاسلام بمكة وملخص علم المخاطب به

ولكني باظهاري لكم هذه الصورة عن الاسلام والحوادث التي تدير بجراه لا اقول انه لا يوجد فيه كثير من التقاليد القديمة التي لا تصدق. فني خلال الثمانية الاشهر التي قضيتها في مكة حكيت احسبني مقيما في مدينة في القرن الثاني عشر او الثالث عشر. فهناك درست الشريعة الاسلامية بكل فروعها وكل اسرار الاسلام في الاشهر الثمانية التي كانت فيها المدينة غاصة بحجاجها البالغ عددهم مائتي الف

ولا توجد تجارة في مكة غير تهب الحجاج فان سكانها الوطنيين يسلبونهم كل ما يكون معهم من مال بالبيع المغبون

ولا شيء ادل على البداوة القديمة من مكة، فهي تمثل الاسلام في العصور القديمة فلا بيوت هناك. اما وسائل النور والطرارة والمياه التي اعتدناها في العصر الحاضر فهي هناك كما كانت في العصور المظلمة. ولكن الذي لم يذهب الى مكة ولا أقام في بيت اسلامي فيها ودرس في جوامعها لا يقدر ان يفهم الاسلام، او يجد صعوبة شديدة في معرفة نشوء بلاد اسلامية

وقد كثر التحدث حينا بعد آخر عن مكة، أنها ستفتح للعالم بالقوة، ولكني لا ارى شيئا يدل على ان انكلترا ستحاول فتح مكة، لانها اذا اقدمت على هذا الامر جلبت لنفسها اضطرابات كثيرة في الهند. ولذلك ستظل مكة عدة سنين مركز التقليد الاسلامي

وعلى الجملة اني اقول ان نشوء الاسلام في القرن الجاري لا يكون شيئا باعثا على الدهشة، بل سيكون طبقا للحركة السومية التي تقرب بين الامم والاديان، دون زوال الاحترام للتقاليد الموروثة عن السلف، ولا بد للاسلام من الاتصال بالعالم الغربي وسيفعل ذلك، ولكن نقصه العظيم او النقطة التي يحتاج فيها اشد الاحتياج الى انخاذ الافكار والمبادئ الاوربية هي موقفه تجاه نسائه، وقد اخذت تساهل في موقفه نحوهن تساهلا بطيئا تدريجيا، فالاسلام لا يمكن ان يرتقي ارتقاء حقيقيا الا اذا حرر نساءه الراسفات في سلاسل التقاليد القديمة التي لا تنطبق على روح العصر الحديثة، التي هي روح الترقي الحقيقي اه

(المنار): سنبين رأينا في هذه المحاضرة في الجزء الآتي ان شاء الله تعالى